اصل الانسان

والانتخاب الزوجي

تأليف العلامة شارلز روبرت داروين

ونقله الى العربية : اسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور ومحررها

مقدمة للترجم ستنشر مع هذا الكتاب الذي سوف يقدم للطبع قريبا

إن فى نقل كتاب « أصل الانسان » إلى اللغة العربية ، وعلى الاخص بعد أن فرغت من ترجمة كتاب « أصل الأنواع (١) لمجالا للتساؤل عن السبب الذى ساقنى إلى نقل هذين الكتابين إلى اللغة العربية ؟ وعندى أن المنزلة التى تنزلها كتب « داروين » فى العالم الغربى ، ليست مبرراً كافياً يبرر نقل أشهر كتابين له إلى العربية . فقد تكون المبادىء التى بنى عليها داروين آراءه فى « أصل الأنواع » و « أصل الانسان » قد نقضت الآن ، وقد تكون المقدمات التى بنى عليها استنتاجاته ، كما قد يتفق أن تكون المشاهدات التى استمد منها استقراءاته ، فقدت كثيراً من وزنها العلمى . وعلى هذا يكون نقل هذين الكتابين . وغيرهما من كتب « داروين » مفيداً إلى حد ما من حيث القيمة التاريخية ، لا من حيث القيمة العلمية ، ويكون الأجدر أن نعمد إلى ترجمة كتب المعاصرين الذين استقاروا بما جد بعد « داروين » من المبتكرات والاستكشافات العلمية . غير أنى أرى أن هذه المعترضات ، على مالها من القيمة ، يمكن معها تبرير ترجمة هذين الكتابين إلى اللغة العربية . ولتبرير ذلك عدة وجوه نسردها.

أما الفائدة اللغوية فما لا سبيل إلى التشكك فيها . فان اللغة باعتبارها كائناً حياً يجب أن تتطور على مقتضى الحاجة للتعبير عن مختلف الفكرات ، وللدلالة على مختلف الأشياء . وهذه القاعدة الثابتة ، لا تترك مجالا لمنتقد ، كما أنها لا تترك حاجة إلى الاطناب لنستوفيها شرحا وتبياناً .

هذا من ناحية اللغة . أما من ناحية أسلوب البحث فالفائدة أعظم وأكمل . فان العلامة « داروين » وهو بحق معلم القرن التاسع عشر ، باعتبار الآثار التى خلفها مذهبه فى عالم الفكر الانسانى ، قد أكب على طريقة فى البحث خاصة به ، وانتحى

---

١ ــ ستظهر بقية اجزاء هذا الكتاب مطبوعة فى أقرب فرصة

فى جمع الحقائق واستيعابها أسلوباً قائماً برأسه فى تاريخ البحث العلمى . ولقد كان هذا الأسلوب سبباً فى نجاحه و إخراجه كتاب « أصل الأنواع » على التخصيص ، كاملا ، على قدر ما كان الكمال مستطاعاً فى عصره ، وعلى قدر ما كانت الحقائق العلمية التى عرفت لعهده معينة على بلوغ الكمال . أما أسلوبه فينحصر فى امرين اثنين : الأول سعة الاطلاع وجمع الحقائق . والثانى مقابلة هذه الحقائق بعضها ببعض . أما الصفة التى غلبت عليه فى البحث فصفة الاستقلال فى الرأى والتحرر من المذهبية بكل معانيها. فان « داروين » مع اقتناعه الاقتناع كله بفساد الفكرة القديمة فى ثبات الأنواع ، لم يسق البحث فيها ليثبت مايناقضها متعمداً ذلك الاثبات متعصباً له . بل بدأ يبحثها وفكره ممتلىء بالشك فى النظريتين ، نظرية ثبات الأنواع ، ونظرية تغايرها واشتقاقها بعضها من بعض . ولقد كان بحثه موجهاً إلى استكشاف ماينقض نظرية التغاير ، أكثرما كان موجهاً إلى نقض نظرية الثبات وخلق الانواع . غير أنه لما وجد أن كل المشاهدات تدعوه إلى اليقين بصحة النظرية الثانية دون الأولى ، مضى حذراً متحرزاً فى وضع قواعدها ، فكشف عن سنة الانتخاب الطبيعى ، التى هى فى الواقع قوام المذهب الداروينى . والحقيقة أن روح البحث إن لم تتشبع بهذه الصفة الضرورية ، لم تصبح من العلم فى شىء ، فهى إما أن تصبح جدلا أدبياً ، أو تأملا فلسفياً. على أن كلا من الجدل والتأمل له فوائده ، كما أن له مناقصه . ونحن إذا اعترفنا بهذا لانحاول أن ننزل من قدر الجدليات أو التأملات الفلسفية ، بل نريد أن نقول إن البحث إذا خرج عن الصفة التى امتاز بها « داروين » فى بحث « أصل الانواع » لم يصبح بحثاً علمياً ، وهذا مانرمى إلى تقريره فى هذا البيان الموجز .

فاذا رجعنا إلى القواعد التى بنى عليها « داروين » مذهبه على اعتبار أن مذهبه فى أصل الانسان إنما هو استقراء ثابت مبنى على مذهبه فى « أصل الأنواع » إستطعنا أن نقول انه لايزال ثابتاً من ناحية العلم . فان مذهبه فى الانتخاب الطبيعى لايزال العمدة فى مذهب النشوء الحديث . وكذلك قواعد هذا المذهب من التناحر على البقاء إلى بقاء الأصلح . أما فى أصل الانسان ، فقد حاول أستاذان معروفان أن يعارضاه ، لا فى الأساس باعتبار أن الانسان مشتق من أصل حيوانى انقرض منذ أزمان موغلة فى القدم ، بل فى الفرعيات التى تكثر من حول الاسس التى تقوم عليها المذاهب العلمية والفلسفية والفنية عادة .

أما المذهبان فقد ظهرا حديثاً ، وقد وضع احدهما الاستاذ « ودجونز » المشرح

وقال بالثانى الدكتور « هنرى فيرفيلد اوزبورن » العالم البالنتولوجى المعروف

ويتخلص مذهب « ودجونز » فى أن القرود العليا فى العالمين القديم والحديث ، والقردة المشابهة للانسان والانسان نفسه ، قد نشأت جميعها بالاشتقاق من أصل أولى واحد فى عصور متفرقة وأنها جميعاً قد تفرعت من ذلك الأصل الأولى ، ولم تنشأ بعضها من بعض . أما الاصل الذى اشتق منه الانسان فكان حيواناً وسطا بين ليمور الهند الشرقية (Tarsier) والانسان الأدنى . ويعرف هذا المذهب عند الانثربولوجيين بالمذهب « التاريسى » ، نسبة الى الاسم الاصطلاحى الذى عرف به ليمور الهند الشرقية عند علماء الحيوان ولم يكن « ودجونز » هو واضع هذا المذهب فى الأصل ، بل إنه مذهب قديم توسع فيه هذا الباحث بما لايخرج فى قوامه عما اسلفنا فى هذا الشرح الموجز . أما أول من فكر فيه فكان الاستاذ « اليوت سميث » ، وكان فى عهد ما استاذاً بمصر فى مدرسة القصر العينى ، فعمد الى درس حيوان من البريمات (Primate) وترجمته الرئيسيات — يدعى ليمور الهند الشرقية (Tarsier) وحاول أن يعين منزلته بين الرئيسيات . والأغلب أن الاستاذ « ودجونز » قد أخذ عن « سميث » رأيه فى هذا الحيوان وتوسع فيه ، فأخرج منه مذهباً جديداً ، لافى أصل الانسان ، بل فى الفرع الذى تأصل منه الانسان ومنزلته بين الرئيسيات .

غير أن هذا المذهب يواجه كثيرا من مشكلات العلم الحديث . فان المشابهة التشريحية والتركيبية بين الانسان والقردة العليا ثابتة بالمشاهدة والاختبار . فى حين أن أوجه الشبه بين الانسان وليمور الهند الشرقية بعيدة جهد البعد فى صفات أساسية . ولقد اعترف الاستاذ « ودجونز » بهذا اذ قرر أن الصلات القائمة بين القردة العليا وبين الانسان تشريحياً وتركيبياً كبيرة . وأن هذه الحقائق مسلم بها فى علم الزولوجيا الحديث بما لايترك مجالا للطعن فيها بحال من الاحوال . ولكنه على الرغم من هذا مضى يزعم بأن الصفات التى يشترك فيها الإنسان مع القرود العليا ليست راجعة الى وراثة عامة تجمع بينهما مستمدة من أصل واحد ، بل يدعى بأنها صفات نشأت فى كليهما على حدة ، وعلى استقلال فى الاصل . ولقد نقض السير « أرثركيث » هذه المزاعم بأن قال بأن الاستاذ « جونز » ينزل كثيرا من شأن المشابهات التركيبية الدقيقة بين الانسان والقردة العليا . فانه حاول مثلا أن يقاسى الشبه الكبير بين دماغ الانسان ودماغ القرد الشبيه بالانسان . فى حين أنه يتعذر على الباحث تعليل نشوء الدماغ فى الانسان

من دماغ النارسيوس ـ ثعور الهند الشرقية ـ من غير أن يمر فى أثناء انقلابه النشوئى بمرتبة لايمثلها إلا دماغ القرد الشبيه بالانسان .

أضف إلى ذلك أنه لم يذكر شيئاً عن خصائص العلاقات من حيث الدم . مثل التفاعل الكيماوى واستعداد النوعين للاصابة بأمراض واحدة . هذه الحقائق وغيرها كانت سبباً فى أن يموت هذا المذهب موتاً طبيعياً فى أوائل القرن العشرين .

أما مذهب « اوزبورن » فقد نشأ كما تنشأ الطفيليات ، إذ كانت نتيجة خطرة تمر بالذهن مر الشرارة الكهربائية ، أو الهزة الشعرية عندما تتأثر المشاعر بانفعال طارىء . ولقد مر على ذهن « اوزبورن » هذا الخاطر عندما كان يبحث فى مجاهل صحراء « مونغوليا » المترامية الاطراف ، إذ خيل اليه أن الانسان نشأ فى تلك المجاهل وأن القردة المشابهة للانسان لا تستطيع أن تعيش فى مثل هذه البيئة . هذا الخاطر الشعرى كان سبباً فى أن يعمل « اوزبورن » سنين طويلة فى سبيل اثباته بالحق أو بالباطل . فأخذ يجمع البراهين والأدلة متعمداً اثباته حتى استطاع أن يعلنه فى سنة ١٩٢٧ ـــ أى بعد سنة ونيف من مرور ذلك الخاطر بذهنه ، فصارح بأنه لم يصبح من مؤيدى مذهب الحيوانات الانثروبودية باعتبارها أصلا للانسان ، وفصل مذهبه الجديد ومؤداه أن للانسان حلقات تسلسلية طويلة من اسلاف ، دعا أحدهم « انسان الفجر » The Dawn Man وقال بأن مذهب الحيوانات الانثروبودية إن أثبت قرابة الانسان بالقردة الشبيهة به ، فانه يعجز عن إثبات تسلسله منها .

ومحصل قوله إن الانسان والقردة كلاهما نشأ عن حيوان أولى لايمكن أن تحكم أيهما هو ، أهو إنسان أم قرد شبيه بالانسان . وعلى هذا يقول « اوزبورن » أنه منذ أزمان موغلة فى القدم كان الانسان انساناً والقرد الشبيه به قرداً ، وأنهما لم يلتقيا على اطلاق القول . وعلى هذا يكون الانسان متأصلا عن حيوان أدنى بكثير من القرد الشبيه بالانسان فى سلم الحيوانية . وعلى هذا يكون مذهب « اوزبورن » على بعده عن مقتضى الواقع المشاهد ، وعدم استناده إلى براهين تنقض البراهين التى يستند اليها أصحاب القول بأصل الانسان « الانثروبودى » ، وعلى رأسهم « داروين » من المذاهب التى ترجع بالانسان إلى أدنى الأصول الحيوانية ، بدلا من أن تجعله راجعاً إلى أصل من أرقى أصولها .

لاشك مطلقاً فى صحة القول بأن الحيوانات الانثربودية التى تعاصرنا ليست الحيوانات التى نشأ منها الانسان . وأكبر الادلة على أن هذا القول لامبالغة فيه ، اختصاص

الحيوانات الانثروبودية الآن بعادات شجرية (Arboreal) أو بالاحرى عكوفها على مستلزمات العيشة الشجرية . والحقيقة التي يؤمن بها أساطين العلماء هي أن الحيوان الانثروبودى الذى نشأ منه الانسان ، لم يكن كما تخيل البعض ، حيواناً بلغ من مدارج الرقى والتخصص مبلغ إنثروبوديات العصر الحاضر . وعلى هذا يكون مذهب الاستاذ أوزبورن معارضاً لمذهب لاوجود له فى الحقيقة . ويكون أقصى مابلغ اليه «أوزبورن» أنه وضع للحيوان الانثروبودى الذى نشأ منه الانسان اسم «انسان الفجر» لا أقل ولا أكثر .

أما الزمان الذى نشأ فيه الانسان فالمحقق عند العلماء أنه عصر البليوسين . فاذا أراد الاستاذ «أوزبورن» أن يرجع به الى عصر الاوليغوسين ، نابذه فى ذلك جلة العلماء . ذلك لانه لايوجد دليل واحد من الادلة المستجمعة فى نشوء الثدييات عامة والبريمات أى الرئيسيات خاصة ، يؤيد هذا الزعم الغريب . ومع كل هذا ، فكما قلنا من قبل اذا فرض وصح هذا القول ، فانه لايزعزع مذهب تسلسل الانسان من حيوان أنثروبودى أى شبيه بالانسان . إذن ففكرة « داروين » من الناحيتين ، ناحية نشوء الانواع بالانتخاب الطبيعى ، وناحية نشوء الانسان من حيوان أنثروبودى ، لاتزال العمدة فى مذهب النشوء . وعندى أن هذا المذهب أكبر مبرر يجعلنى أعتقد أن قضاء شطر من العمر فى العكوف على نقل هذا المذهب عن مظانه الاصلية ، لايذهب هباء ، بل ربما تكون فيه بعض الفائدة لفئة خاصة من المتعلمين .

* * *

عندما كنت أترجم الصفحات الأخيرة من كتاب أصل الأنواع . وكنت إذ ذاك منقطعاً فى جوف الريف والليل ساكن والطبيعة فى همود يشبه همود الموتى ، تملكنى احساس غريب بعث إلى عينى قليلا من الدمع حتى أغرورقتا به . فلما القيت القلم من يدى وكنت قد أتيت على آخر كلمة من الكتاب ، شعرت كأن صوتاً خفياً خرج من أعماق نفسى وأخذ يودع العلامة «داروين» ، ممثلا فى كتابه الخالد الذى عانيت فى ترجمته الأمرين ، لاسباب شرحتها فى المقدمة التى وضعتها لطبعته الثانية ، وكأنه يقول : وداعاً أيها المعلم العظيم ، وداعاً أيها الصديق الصادق الود ، وداعاً أيها الرفيق الأمين ، وداعاً أيها المرشد النصوح .

ولئن عدت اليوم إلى ترجمة ثانى كتبه العظيمة ، فانما أعود اليه طامعاً فى أن تستحيل نفسى إلى هذه الصورة مرة أخرى ، وأن القى القلم بعد أن أخط آخر حرف فيه ، فان جمال هذه الصورة لن يفارق نفسى أبداً . ولعلى أنال ما أطمع فيه مرة أخرى